الرواية الأولى

خارج نطاق الواقع

*****

الفصل الأول

(هل تعرفتم علي؟!)

"امسك هاتفك، واتصل على قلبك، وتأكد ألا تعطيك المكالمة إشارة (أن الهاتف خارج منطقة التغطية)"

(سأموت قبل أن أحيا، وسأحيا وحيدا) دائما ما كنت أفكر في هذه الجملة، آخذها عند كل فكرة أفكرها، كان كلما فتحت لي الدنيا أبوابها، أتذكر هذه الجملة فتصفعني الدنيا بكل قواها وكأنه لا حول لي ولا قوة، أتعمق فيها لكن لا أجدها تصفني، أو حتى تشير إلي بإصبعها الصغير، لا لست أنا من سيعيش وحيدا، لكن أحيانا يأخذنا سوء الفهم، لا سوء الحكم. قبل أن أولد، وقبل أن أعيش على هذه الكرة البيضاوية، ومع هؤلاء البشر، كنت أنتظر الخروج لأبحث عن حياتي التي تنتظرني، كنت أسمع صوت أبي الذي يعلو المكان بصريخه، وأسمع ردود أصوات من داخل الحجرة التي أنا بداخلها، لم أكن أفهم أي شيء. هذا الفضول الذي شجعني على الخروج قتلني من داخلي، أصبحت أتساءل هل هنالك أحد يسمعني، أم أنني محبوس هنا!؟ عند ولادتي ذبح أبي ثلاثة خراف سمان، ووزعها في جميع أنحاء المدينة التي كنا نسكن فيها، إلى هذه الدرجة كان يحبني؟! كان لدي ست إخوة، وأنا سابعهم، تسبقني أختي بسنة واحدة ، وأخي يعقبني بسنة. كان دائما ما يأتيني شعور غريب تجاه أخي الأصغر وأختي الأكبر، لم أكن أعلم ما سره، كنت أحبهم أكثر من غيرهم، أختي تدعى (تمارا) ، كنا دائما ما نتشاجر على أي سبب، هذا لا يعني أنني لا أحبها، بل كنا نغار من بعضنا البعض، وهذا طبيعي

بين صغار السن ما بين الرابعة والخامسة عاما. لهذا كان والدي كلما أتى بشيء ما جلب لكلانا، وكنت أشعر أن تمارا هي النقطة المشتركة بيني وبين إخوتي ، كنت أعتبرها هي أختي المقربة مع أنه لم يحدث أي شيء يؤكد لي هذا. على عكس تمارا، فأخي الأصغر الذي يدعى (مجد) كنت أعتبر أنني مسؤول عنه حتى وأنا في سن صغير، كنت أشعر بأن من واجبي تجاهه مراعاته وتلبية احتياجاته، مع أنني وبكل صراحة لم أكن أفقه ماذا تعني كلمة (رعاية). كان مجرد إحساس لم أفهم معناه إلا بعد أن كبرت في السن وأخذت دروس الحياة حتى شاب شعر رأسي. ما زلت في الخامسة من عمري، وأنا بين أسرتي نمرح ونلعب ونخوض مراحل الحياة بكل قوة، كنت أرى على وجه أبي أثار المشقة والتعب، وأتساءل ما الذي من الممكن أن يضيع لذة الحياة عند هذا الرجل الذي يخرج من البيت منهكا ويعود بالكاد يأخذ أنفاسه ، ما هذا الشيء الذي سيجبره على فعل هذا؟! ونحن في البيت ما كان يشغل بالنا وتفكيرنا سوى (أين مصروفي؟ وأين ألعابي؟)، نعم كنت ألاحظ كل هذا الذي يفعله لكنني لم أكن أصل إلى حبل يربط أفكاري المتفككة. كانت دائما أمي تخبرني كل يوم كيف تعبت أثناء فترات الحمل، وكيف كنت أُتعِبها غير باقي إخوتي، كانت تصر على إخباري وكأنني أخبرتها أنني منكر لفضلها! كنت أتردد عند سؤالي لها هل تريدين إخباري بشيء ما؟! كانت هذه الأم أعتبرها حنونة، لكنها لم تكن تفهم ما نريد، كنت أشعر أنها مجرد شخص يراعي إهتماماتنا ، لا أكثر ولا أقل، لم أشعر في يوم أنها تحس بنا او تشعر بما نقول عند الحديث معها، كنت كلما أريد أن أخبرها بأمر ما أتردد، وأقول في نفسي (هل ستفهمني؟!) أسئلة كثيرة كانت تدور في مخيلتي ، وشيء غريب أن طفل في عمر الخامسة تدور في

عقله أسئلة كهذه، كنت أحيانا أتخيل لو أنها تستطيع اختراق عقلي فتسمع ما أقول عنها فتعاقبني على ذلك. عشت طفولتي .. لا لم أعشها، فكل لحظات الطفولة كانت مغرقة بدماء الواقع الذي أعيش فيه، قطرات النزيف تصرخ عند سقوطها، لم يكن واقعا، بل كان خارج نطاق الواقع.. بمجرد أن أتذكر لحظات طفولتي المقيدة أتذكر لذة عقوبتها، وكلما تذكرت عقوبتها، أخذتني الحياة بصفعاتها.

أجلس كثيرا مع نفسي أحدثها، ألجأ إلى قلبي لأواسيها، كلما ألجأ للاستقرار يقتلني الجيشان، وكلما أحببت الحياة، تكرهني الدنيا ومن فيها، وكلما تمنيت الموت فتحت لي أبواب السعادة على الأرض، ما هذا الذي أعيشه، هل هو واقع يعيشه الجميع؟ أم أنني أعيش في واقع مخالف؟! فليس من الطبيعي أن يعيشه الناس ولا يتضجرون! أم أن صبري قد نفذ؟! إنني ابن الخمس فما الذي ينفذ وأنا ما زلت صغيرا! أعيش تناقضات يومية، أعيش حياة مزدرية، لا أحد يشعر بي، حتى أقرب الناس لي، أحيانا علينا أن نسعد بأقبح الأشياء حتى تأتينا أجملها، لكن متى ستأتي هذه الأشياء؟ أم أنني أنا من سيذهب لها ويطرق بابها؟ وماذا إن كانت قد أغلقت بابها بالمفتاح وأضاعته في مكان ما؟!

أغلقت أصوات الرياح أبواب منزلنا، ونحن في خوف يسكن أجسادنا، الأمطار تنهمر بالبكاء، والرعد والبرق يصران على إخافتنا، كان يوما عصيبا، اتصل أبي على إخوتي فقد كانوا خارج البيت، في مثل هذه اللحظات يصر أبي على التمسك بروابط العائلة التي كان يصفها أبي بأنها أقوى من أية روابط، يحاول جمعنا في أعسر الأوقات حتى نتمسك ببعضنا في أيسرها. الأمطار تشتد، والأصوات تعلو، وإخوتي ما زالوا في

الطريق، أنا وأمي وأبي، ومع أخي الأصغر وأختي الأكبر نرتعش من الخوف، حتى أمي التي كانت تحاول تهدئتنا كانت ترتجف. لم يصل أي أحد منهم! انشغل بال أبي عليهم، أمي شرعت بالدعاء، وأبي يتصل عليهم، لكن لم يجد أي جواب. دخل أبي إلى غرفته لكنه لم يستغرق كثيرا ، فقد ذهب وارتدى ملابسه وذهب مسرعا إليهم ليبحث عنهم. ومع علامات التعجب سألته أمي: إلى أين أنت ذاهب يا خالد؟

الأب: سأذهب وأبحث عن أبنائي.

أمي: كيف ستخرج في مثل هذه الأجواء؟!

الأب: إن الله معي يا امرأة، إلى اللقاء

و ذهب مع الرياح كما يقولون. نعم، كنت أسمع هذه المقولة لكن لم أكن أصدقها حتى رأيتها، فقد ذهب مع الريح الشديدة، التي تقتلع الأشجار من جذورها، وغصون الشجر يكسر ساقيه من طول المطاف، أين سيذهب أبي! وكيف سيجدهم؟! أبي حتى لا يمتلك سيارة لتنقله إلى حيث أراد، فلعائلتنا سيارة واحدة وقد أخذها إخوتي الأربعة ولم يعودوا، إن هذا لأمر مثير! تعبت من كثرة الانتظار، أو بالأحرى، تعبت من الخوف الذي لم يلامس قلبي، بل قاتل قلبي حتى تغلب عليه، ذهبت أنا وإخوتي للنوم وقد بقيت أمي على حالها حتى طلوع الشمس، فما حدث كان مخالفا للواقع!

*****

الفصل الثاني

(بطولة الضرب)

"إن لم تستطع القيام بعمل ما، وضاقت عليك الدنيا فلا تحاول القيام به، بل اعزم على ألا يكون هذا الشيء إعجازا لقدراتك التي تثق بها."

طلعت الشمس من شرقها كالعادة، لكن ما حدث لم يكن كالعادة، فقد استيقظت على بكاء أمي، ما جاء في خاطري وتفكيري هو (أين أبي؟) ، أسرعت إلى الصالة فوجدت أبي بملامح جافة ووجهه الشاحب ينظر إلى أمي ويقول: احمدي الله على ما حدث لحظة، ما الذي حدث؟ هل إخوتي في المشفى؟ ماذا جرى لهم؟ لم أفهم ما الذي حدث إلا بعد ما قالته أمي والذي كان بداية لكل معرقلات هذا الواقع المزيف.

الأم: لِمَ لمْ يمت واحدا منهم؟ لماذا مات الأربعة معا؟!

ماذا؟! إخوتي ماتوا؟ كيف يعقل هذا، ألن أراهم ثانية؟ في الحقيقة في ذلك الوقت كنت لا أفهم ماذا يعني الموت، أو ما هي قيمة كلمة الموت، فقد كان كل ما يجول في عقلي أن الموت ما هو إلا كلمة تأتي بمعنى شخص يذهب عن عيني فقط، لكن غيري قد يراه، قد تجد هذا التشبيه غريبا بعض الشيء، لكن بعد نهاية روايتي ستجد أن هذا التشبيه هو الأقل غرابة من بين جميع التشبيهات. مات إخوتي الأربعة، بقيت مع إخوتي (المقربين)، تمارا ومجد، بدأت أشتاق لإخوتي كثيرا، لكن أحيانا يجبرنا الواقع على تصديقه، وعلى اللجوء له في وقت عدم حاجتنا إليه، يجبرنا على التحلي بصفاته والتخلي

عن الخيال الذي يجول في رأسنا، وكأنه يقول لنا (لا تحلم، عش الواقع ثم احلم) وهذا يعني أنني لن أحلم بتاتا، فبمجرد أن أعيش واقعي تصدر أحكام الواقع حكم الإعدام على حريتي وتفكيري فأخضع للأمر الواقع. يعمل أبي في أعمال حرة، فلم يكن يحب أن يتقيد بأي عمل كان، فقد كان يعمل في تجارة الخشب والأمور التي يحتاجها أهالي القرى والمزارع ليستغلوها في أمور قد تنفعهم، ولقد مضى زمن طويل على حاله، والمعروف أن أبي ذكي في مثل هذه الأمور، فهو لا يحب أن يعمل فقط من أجل قوت اليوم، لهذا كان يخزن جزءا من مصروفه لبناء مشروعه الخاص والذي كان غرفة صغيرة تحت المنزل استغلها كمحل للحلاقة، لذلك تعلم الحلاقة وبدأ بمشروعه الذي نجح وربح أكثر من عمله الأساسي ألا وهو التجارة. كان ذكيا جدا في مثل هذه الأمور، وكنت دائما ما أراه مستمتعا في عمله بالرغم من أنه غير مرغوب فيه عند البعض. كان دائما ما يخبرني بأنني أنا خليفته فيه، وأنني سأساعده فيه عندما أكبر، كنت أخبره بأنني قد كبرت ويجب أن يدعني أعتمد على نفسي، لكن طفل بعمر السابعة من عمره لا يفقه بأي من هذه الأمور، فكان يجبرني على الجلوس لأراه؟ كيف يقود عمله على أكمل وجه؟... كنت أفتخر بهذا الشيء، فوالدي إنسان طموح، وقد واجه صعاب الحياة وحده كما كان يخبرني من قبل. أمي لم تكن تعمل، كان كل ما عليها هو تحضير الطعام وتنظيف البيت، وكانت دائما ما تتشاجر مع أبي على هذا الموضوع، فقد كانت تتأخر أحيانا مع زميلاتها وتعود إلى المنزل وكأن الطعام سيحضر نفسه بنفسه. وكان هذا يؤثر سلبا علي أنا وإخوتي، فعندما نشاهد تلك المناوشات التي لا أصل لها، نظن أننا في بيت الضجيج، والجدير بالذكر أن هذه الخلافات تزداد سوءا يوما بعد يوم، وفي كل مرة

يكون السبب تافها. أدخلني أبي المدرسة الحكومية التي توجد في منتصف مدينة (الدار البيضاء) في المغرب، وكانت مدرسة جيدة إلى حد ما، لم أكن أعاني من أي شي، فقد كنت في الصف الأول الابتدائي ، وكانت الأمور سلسة بالنسبة لي. كانت أختي تمارا معي في نفس المدرسة، لكنها تسبقني بسنة. وفي أول يوم دراسي عرفتني على مرافق المدرسة وعلى مدرسيها، أحببت المدرسة التي بدت مكان استقرار بالنسبة لعقلي ، بعيدا عن المناوشات التي تحدث في البيت، لكنها لم تكن محل استقرار لقلبي، فكنت أشعر بإحساس غريب بمجرد دخولي تلك المدرسة العجيبة. لم أكن أعرف سبب ذلك الشعور حتى حدث ما حدث.

في يوم من تلك الأيام، دخلت إلى المدرسة من بابها العريض، وإذ بأحدهم يضربني من الخلف ويهرب، فما كان مني غير أن لحقته وأمسكت به، كان شعوري الداخلي يأمرني بأن أضربه مثلما ضربني، لكن ما كان مني غير أن ضربته ضربا مبرحا وكأن غليل قلبي لا ينفذ. رآني أحد المعلمين وأنا أضربه، فأمسكني كقطعة منديل ورماني بعيدا، وبعد أن اطمئن على صحة الولد أمسكني من ثيابي بإصبعيه وأخذني عند مدير المدرسة.

المعلم: انظر يا سيدي ماذا فعل هذا الطالب في ابني.

ابنك! لقد كان ابنه! إنه لأمر مضحك، لماذا يضعني الواقع دائما في أمور كهذه؟! في المرة الوحيدة التي أضرب فيها أحدا يكون هذا ابن أحد المعلمين! لم يدم ذلك كثيرا، فبعد ثوان تدخل أحد الطلاب وقال: يوسف معه الحق يا سيدي (و أشار إلي)

نعم، هذا اسمي، أنا يوسف، لم أسمع اسمي منذ زمن طويل، لم يكن يهتم لأمري أي أحد في هذا العالم، لكن من هذا الولد؟ ولماذا يدافع عني؟ وكيف عرف اسمي؟

الولد: لقد شاهدت كل شيء بأم عيني يا سيدي، لقد ضربه هذا الولد من الخلف وهذا ما جعل يوسف يقوم بأخذ ثأره منه، أرجوك يا سيدي سامحه، فهو لم يقصد أي إساءة.

المدير: هل تسامحه يا أستاذ؟

المعلم: لا لن أسامحه، لقد تسبب في أذى ابني.

المدير: إذا سنتصل على أبيك يا يوسف، أعطنا رقمه.

يوسف: لكن أبي ليس لديه هاتف.

المدير: هل يعقل هذا؟ هل تكذب يا يوسف؟

يوسف: لا، أنا لا أكذب بتاتا يا سيدي، لكن أبي قد أضاع هاتفه في الأمس.

المدير: إذا تخبره بأننا نريد أن نراه هنا في المدرسة غدا، مفهوم؟

يوسف: حسن يا سيدي.

عدت إلى البيت، لكنني بالتأكيد لن أخبر أبي، لأنه لن يتفهم ما حدث لي وسيصفعني على وجهي، لكن ضميري الداخلي لن يسمح لي بإخفاء الأمر كثيرا، حسنا سأخبره لأن الصفعة التي سيصفعني إياها أبي لن تكون أقوى من الطعنات الداخلية التي في داخلي، لذا أخبرت أبي بما جرى في المدرسة، لكن حدث ما توقعته، أخذني إلى ما كان يشغل عقلي، أخذني بعلامات وخطوط على وجهي من الضربات التي ضربني، هذه البطولة التي كنت أسميها بطولة الضرب التي يواجه بها أبي وجهي ويتصارع معه وكأنني أهنته عندما أخبرته أن المدرسة تريد رؤيته، نسيت أن أخبركم أن أبي كثيرا ما يتأثر بكلام الناس ويقوم بحساب أي فعل يقوم به من أجل الناس وكلامهم .

الفصل الثالث

(شكرا لك)

"اصنع سمعتك بنفسك، واحمل حجار التفاؤل والسعادة بيدك، واغرسها في نفسك وأخلاقك، واسأل دائما عن اسمك، واجعل كل من نطق به اتبعه ب " أطال الله في عمره " فهذا ما قد يدوم، بل هذا ما سيدوم بعد مماتك. وتذكر حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا))" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

ذهب أبي معي إلى المدرسة في اليوم التالي، وعلامات الضرب ما زالت على وجهي تشير إلى السعادة المفعمة، وصلنا إلى مكتب المدير وكان المعلم ينتظرنا هناك هو وابنه ، ابنه الذي يقال بأنه ضُرب، لكن في الحقيقة أنا الذي أستحق أن أشتكي، أو بالأحرى العلامات التي على وجهي تطالب بالمغفرة. سمع أبي الكلام الذي لم يعجبه من المدير والمعلم، وكان أبي منصتاً جيداً ويطلب العذر منهم، والذي لفت انتباهي هو التغير الجذري بمعاملة المدير والمعلم مع أبي عندما علموا أنه يعمل حلاقاً في المدينة، وأنه كان يعمل بالتجارة منذ فترة وجيزة، لكن هذا هو حال الواقع. توعدني أبي في البيت بعد الذي سمعه، ووجدت ملامح الخجل على وجهه، الخجل الذي نادرا ما يلامس ملامح ذلك الرجل الكبير، كان خجلا مروعا، حزنت عليه قبل أن أحزن على نفسي، لم أكن أتمنى أن أرى ذلك المشهد المحزن على وجهه، كان ذلك الرجل هو كل شيء

بالنسبة لي، أدرس من أجله، وأسعد من أجله، حتى عندما كان يضربني أخضع للواقع من أجله، كنت أبحث عن أي الأمور التي تسعده وأنفذها، كان هو من يصبرني على تقلبات هذا الواقع الأليم، لم أكن أتوقع أن أكون في يوم سببا في حزنه ويأسه، منذ ذلك اليوم عهدت على نفسي عهدا ألا أراه حزينا أمامي، أو على الأقل لا أكون أنا السبب في حزنه، بل أكون سببا في دعائه لي ولمستقبلي الذي ينتظرني. تعرفت على صديقي الذي حاول إنقاذي من ذلك الموقف البشع، أخبرني أن اسمه (بلال) ، وكان ذلك الصبي محل ثقة بالنسبة لي، كبرت صداقتنا يوما بعد يوم، وسنة بعد سنة، كنا نقضي معظم أوقاتنا معا، كنت أعتبره روحي الثانية التي ألجأ إليها بعد نفسي، مع أنه كان يكبرني بسنتين إلا أنه كان متفاهما معي إلى أبعد الحدود، كنت أفوق أقراني لهذا السبب، أنني أفكر بتفكير أكبر مني، وكنت آخذ الأمور من ناحية مختلفة عنهم، كان بلال متفهما لما يحدث معي في حياتي، ويعتبر أنه هو الشخص الوحيد الذي يعرف معنى ما أقصده عندما أخبره أنني أبحث عن الهروب خارج الواقع، وأنني لا أحب المكوث داخل قوقعة الواقع المزيف الذي يلزمني بتصديقه وتصديق الخرافات التي تحدث بداخله، وكان يخبرني أن أعمل المستحيل لأخرج منها، حتى وإن كان ذلك مستحيلا، لكنني على الأقل آمنت بنفسي وخرجت منها بروحي التي تلازمني طوال الوقت. سنوات أعاني من نظرات الجميع من حولي، بمجرد أن أدخل باب المدرسة تلتفت جميع الأنظار إلي ويقومون بإطلاق الصفات والألفاظ الغريبة علي، (هذا ابن الحلاق) و(هذا الذي لا يبتسم) و(انظروا إلى الحقد في عينيه) والكثير الذي لا ينبغي أن أذكره، يقولون ويقولون وهم مغيبون عن الواقع، لا بل إنهم داخل ذلك الواقع، كم هذا غريب، كيف

لكم أن تحكموا علي وتطلقوا تلك الكلمات على شخص لا يعرفكم أو على شخص لم يؤذ أحد منكم، بل كيف تطلقون أحكاماً على شخص قد عاش في واقعاً مملوءاً بالتعاسة والقساوة ما عاش، وتعب في حياته التي لم تدم كثيرا، هذا هو حالي قبل أن أدخل في عالم العشرينات، فما هو حالي بعد أن أخوض في العالم الآخر والأصعب كما يقال! أنا اليوم عمري ١٤ وما زلت أعاني من تلك النظرات، ومن تلك العنصرية في التعامل من قبل المعلمين قبل الطلاب، ولولا ذكائي واجتهادي في الدراسة لما تفوقت على من هم في نفس عمري، يجتهد المعلم على تدميري لكنه لا يفلح بسبب مجموعي الدراسي العالي، يخطط الطلبة كيف لهم أن يدمروني نفسيا لكنني لا آبه لأي مما يخططون له. وفي يوم من الأيام الكئيبة، عدت إلى البيت وليتني لم أعد. وجدت البيت مقلوبا رأسا على عقب، والجميع هادئ، ماذا حل بكم؟! هل كنتم تتصارعون؟! سألت أبي: ماذا حدث أخبرني؟

الأب: اذهب إلى غرفتك مع إخوتك.

ذهبت مسرعا إلى إخوتي والخوف يمتلكني، اعتقدت أن مكروها قد أصابهم، لكنني شاهدت منظرا لم أره من قبل، أخي يبكي وأختي تنهمر بالبكاء. يا إلهي ماذا جرى هيا أخبروني؟! لم يستطع أي منهم أن يخبرني ما حدث. ذهبت إلى أمي لأسألها لكنني لم أجدها. ليس لدي سوى أبي. ذهبت إلى أبي وسألته عن الذي جرى وأخبرته أنني بحاجة ماسة لأعرف ما حدث، فأخبرني وليته لم يخبرني. أخبرني بأنه قد تشاجر مع أمي شجارا حاد وطلقها على إثرها على الفور. لحظات صمت دامت لدقائق... ماذا تقول يا أبي؟! طلقت أمي! لماذا يا رجل، ألم تفكر في أبنائك!؟ ألم تفكر ما قد يصيبنا من

التفكك الأسري بعد الذي فعلته؟! كنت على وشك أن أفقد أعصابي، ولم أكن أنتظر أن يهدأني أبي أو أي شيء من هذا القبيل، لأن أبي في العادة لا يقوم بمثل هذه الأمور، وأنا لم أعتد على البكاء في حياتي، لكن نفسي ضاقت علي. من هنا بدأت همسات أمي تدخل آذاني، تهمس وتقول (بني، بني) همسات تؤلمني عند دخولها، لا أعلم مصدرها .ذهبت إلى إخوتي لأسألهم: هل ودعتكم أمي؟ أم غادرت ولم يهمها أحد سواها؟ ففي اعتقادي أعلم أنها بخيلة إلا على نفسها، لا يهمها أحد سواها، فإذا كانت ودعتهم سأذهب إليها وأتحدث معها، مع أنني صغير في السن لكن عقلي يكبرني بسنين. فأخبرني أخي أنها غضبت وخرجت من البيت بدون أي كلام، أخذت بعض ملابسها وغادرت على الفور، حتى أنها لم تودعهم ولم يهمها أي شيء في هذا البيت الصغير. هل يعقل هذا؟! هل يوجد أم في هذا الكوكب الصغير بهذا الكبرياء وهذا البخل في المشاعر؟! الدمعة التي كانت تسقط خجلت من نفسها وصعدت إلى مقرها في العين، لن أسمح لعيني بأن تدمع أو يراها أحد تضعف مهما دمت في هذه الحياة، لن أضعف أمام أحد قط، من الآن وصاعدا سأكون سببا في إسعاد أبي وإخوتي، فالحزن الذي رأيته على وجه أبي قتل إحساسي ومشاعري ، وبحيرة الدموع التي أغرقت إخوتي لن أراها مجددا، أنا شخص يستعيد قواه بمثل هذه المواقف، لن أضعف ،لن أنكسر، لن أنهزم، شكرا لك يا أمي علمتني كيف أكون شخصا آخر.

*****

الفصل الرابع

(السمعة الطيبة)

"أحيانا كثرة الكلام تدل على ضعف المصداقية، وكثرة التفاخر بالنفس تزيد النفس ضعفا وهوانًا، وهذا ما يدل على ضعف الشخصية، لكن أحيانا الصمت بحد ذاته يعني الكثير والكثير والكثير. لذا احذر من الصامتين."

صباح جديد، استيقظت على رائحة القهوة وجمالها، أبي كان يحب القهوة من يدي أمي، في الحقيقة كان يحب أي شيء منها، أحبها حبا عميقا، لكن كرامة نفسه استأذنته، فقد أتعبته أمي كثيرا، لم تكن تهتم لأمره أو حتى تسأل عنه، كانت مجرد زوجته بالحروف، كانت تهمله ويهتم بها، كانت تحزنه ويسعدها، أي الآباء أنت! ذهبت إلى أبي فوجدته يفكر، هل باعتقادكم مازال يحبها؟! ذهبت إليه وألقيت عليه السلام.

يوسف: صباح الخير يا أبي

الأب: صباح الخير يا ولدي.

يوسف: بماذا تفكر يا أبي؟

الأب: في الحقيقة أفكر في الليالي والشهور، أفكر بحبي لها، كم من مرة أخبرتها بألا تتركني وحدي، أخبرتها أنها شريكتي التي أشاركها فرحي وسعادتي، وكنت أتعجب لِمَ لم تبادلني نفس الشعور، ضحيت من أجلها مرارا وتكرارا، أُسكِتُّ ضميري من أجلها، أغلقت الباب على نيران قلبي الذي كان ينادي من أجل حرية الاستقرار الداخلي، لم أكن أفكر بنفسي طوال الوقت كما كانت تفعل، لم أحرمها من أي شيء على

الإطلاق، كنت أسافر وأتاجر، وأعرق وأكافح، كنت أسأل عن الطريق إلى قلبها فقد كنت أتوه داخلها، وبعد كل هذه السنين تتركني بكل بساطة وتذهب، وبدون أي كلمة، حتى أنها لم تجادلني، وكأنها انتظرتها منذ زمن بعيد، لقد عشنا ما يقارب ال ٢٠ سنة ونحن في نفس البيت، لكنني كنت أشعر أنني ٢٠ سنة في قلبها متيم، كنت أحس أنني ٢٠ سنة في الحب أعيش، كل سنة من ال ٢٠ كنت أعيش قصة حب جديدة، وكأنها أخذت مني كل شيء وأبقت ال ٠ من ال ٢٠.

يا إلهي، كل هذا الكلام يخرج منك يا أبي! لم أسأله سوى سؤال واحد، (بماذا تفكر يا أبي؟)، اعتقدت أنه سيصفعني ب (إنه ليس من شأنك) لكنه صفعني ب (لماذا لم تسألني من قبل عما بداخلي). بدأت علاقتي بوالدي تتطور شيئا فشيئا، ما زالت شخصيته كما هي، قاسي وذو كلمة لا تناقش، لكن أصبح يروي لي أمورا لم أعتد عليها، أصبحت أنا الأذن التي يتحدث إليها كل يوم، وأصبح يعتمد علي في أمور أكثر، أمور تخص إخوتي بشكل خاص. وفي يوم من الأيام السيئة بالنسبة لي ، كنت في المدرسة أذاكر لامتحان كان علينا بعد ساعات قليلة، وبينما أنا على هذا الحال أتى مجموعة من الطلاب ينظرون إلي من بعيد، نظراتهم كانت تقتلني، فلم تكن نظرات عادية بل كانت نظرات سخرية واشمئزاز، ينظرون ويضحكون، كان عددهم بين ال ٥ وال ٧ . نظرت إليهم بنظراتي الحادة لكنني أكملت مراجعتي، وكلما أقرأ كلمة يصرون على مضايقتي، ماذا تريدون مني؟! اتركوني وشأني أيها الجبناء! دخلنا قاعة الامتحان ومن حسن حظه جلس ورائي أحدهم. قبل بداية الامتحان أخبرني: يوسف، هل ستغششني أم ماذا؟

يوسف: لا، أنا لا أغشش أحدا

الطالب: إن لم تغششني سأقطع رأسك عن جسدك، هل سمعت؟

يوسف: إذا افعل ما يحلو لك إن استطعت.

بدأ الامتحان وأجبت على الأسئلة جميعها، وخرجت من قاعة الامتحان، فما كان من ذلك الطالب إلا وأن تبعني إلى الخارج وصرخ في وجهي: لمَ لمْ تغششني يا ابن الحلاق؟

يوسف: قلت لك منذ البداية أنني لن أغششك.

الطالب: إذا تريد أن تُقتل وحدك أم تريد أن تزور والدك في محل الحلاقة أولا؟

هنا لم أستطع أن أمسك أعصابي أكثر، أمسكت به وضربته على وجهه ضربا مبرحا، كل ما كان يشغل تفكيري في تلك اللحظة هو كيف يمكنني أن أنتقم من جميع المعلمين والطلبة في هذا الشخص المزعج، لم أستطع أن أضربه كما تمنيت، فقد أتى الجميع ليوقفوا هذا الشجار، وكما توقعت أخذني المعلم إلى المدير ووضع اللوم علي وكأنني أنا المذنب. ما أزعجني هو ما قاله المدير عني أنني أحب المشاكل، وأنني لم آتي لأتعلم ، وإن كنت قد أتيت لأتعلم فقد تعلمت كيف أضرب الطلاب الأبرياء. ما هذا العالم الذي يرى من منظوره الخاص، ألهذه الدرجة أصبحنا بلهاء؟! ما كان من المدير غير أن يجلب أبي ويخبره أنني طالب مهمل وباقي الكلام الذي تعودتم عليه. عدت مع أبي إلى البيت وطول الطريق لم يهمس أي كلمة، وهذا ما كان يرعبني. عندما وصلنا إلى البيت أخرج حزامه الحديدي وأخذ يضربني ضربات فقدت الإحساس من بعدها. ومنع عني المصروف. يا للواقع الأليم، حتى عيني محرومة من البكاء. ماذا أفعل في نفسي؟ حتى الشخص الذي كنت أدافع عنه لم يتفهم حالي وأخذ يضربني، لم يصدقني حتى وصدقهم. دخلت إلى الحمام حتى أبكي بدون أن يراني أبي حتى حتى جاء أبي وشاهدني

أنني كنت أتخيله يراني، وعندما خرجت ورآني على ذلك الحال أخذ يضربني أكثر وهو يقول (لا بكاء للرجال) وأخذ يكررها.

في اليوم التالي عندما حاولت الدخول إلى المدرسة أخبروني بأنني مفصول من المدرسة لهذا العام ولا يمكنني الدخول. وهذا ما جعلني أعمل مع أبي في الحلاقة والتجارة، أسافر معه تحت الشمس الحارة والطيور تغرد فوق رؤوسنا، لأول مرة أشعر أن غريد الطيور نقمة على آذاني. كنت أعمل بلا توقف، كنت أتمنى النوم حتى وأنا واقف، التعب امتلكني، والمشقة أحبتني، ولم تسألني في مرة إن كنت قد بادلتها نفس الشعور. ضاعت من عمري سنة، أصبحت في مستوى أخي التعليمي، ويا ليتها كانت كذلك، فعندما أردت أن أسجل للسنة التي تليها منعوني من التسجيل. أكملت عملي مع أبي، أعطاني أبي محل الحلاقة بالكامل وذهب هو يعمل بالتجارة، كان يأتي صديقي بلال ليساعدني في المحل عند غياب أبي في الصيف لكن مع بدء الدوام الدراسي الجديد لن يستطيع القدوم بسبب سنة تخرجه من المدرسة. في يوم من الأيام، كان أبي قد خرج للتجارة منذ أسبوع تقريبا، وفي العادة يستغرق يومين على الأكثر، لكنه عندما عاد كان على وجهه آثار التعب والمشقة، أخبرته بأن يأخذ قسطا من الراحة ففعل. لكن بعد الدقائق المعدودة طرق أحدهم الباب وبقوة. من هناك؟! هذا ما خطر على بالي في الثانية الأولى، لكن طرقات الباب لم تجبني، فتحت الباب حتى صرخ في وجهي رجل الأمن: أين والدك؟

يوسف: ماذا حدث؟

رجل الأمن: قلت لك أين والدك؟

يوسف : حسن، إنه في الداخل

ذهبت وطلبت من والدي الحضور، وعندما جاء إليهم قال: ماذا هناك يا حضرة الضابط؟!

رجل الأمن: وصلتنا أخبار بأنك تتاجر بالمخدرات هل هذا صحيح؟ أخبرنا حتى لا نتعب أنفسنا.

الأب: ماذا تقصد يا سيدي؟ أنا رجل كبير ولا أقوم بمثل هذه الأعمال .

رجل الأمن: هيا فتشوا بيته كاملا.

أسرع رجال الأمن بتفتيش جميع أنحاء المنزل، ولم يتركوا جزءا من المنزل لم يفتشوه، ولم يجدوا أي شيء مما كان يقوله ذلك الضابط. تجمع سكان المدينة أمام منزلنا، ما هذا العار الذي وصلنا إليه، أبي الذي يهمه كلام الناس أصبح حديث الناس، لكن ما وصل إليه في النهاية أن الجميع دافعوا عن أبي وأخبروا الضابط أن أبي لا يقوم بمثل هذه الأعمال. صدقت الشرطة هذا الكلام واعتذروا من والدي الذي اصفر لونه وعاد إلى نومه مرة أخرى. كل ما في الأمر أن هذا اليوم أصبح بمثابة بداية حياة جديدة لأبي، فلم يبق أي أحد في المدينة لا يعرف أبي، وبماذا ، بأخلاقه الحسنة والذي لا يرتكب الأخطاء، وهذا بالطبع عاد بالفوائد، فأصبح الجميع يأتي بالوفود إلى محل أبي، وأصبح السفر كلمة قصيرة المدى، فالتجارة تأتي إلى بيتنا بدلا من الذهاب إليها.

*****

الفصل الخامس

(أصدقاء جدد)

"لا تحاول جذب العقول بمدحك لنفسك، ولا تحاول إظهار قدراتك بالتفاخر بالنفس أمام من لم يسألك عنها، وثق بقدراتك قبل أن تجعل الناس يثقوا بها، وتواضع ونم في قوقعتك قبل أن يهدمها من هو أعلى منك، فكما قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله "إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه""

تخرج صديقي بلال من المدرسة، وأصبح أخي في الصف العاشر الثانوي وأنا ما زلت في الصف التاسع المتوسط، شيء محزن عندما تجد نفسك تكبر أقرانك بسنتين، تشعر أنك فاشل بينهم، تشعر نفسك محبط لا رغبة لك بالدراسة، لكن الوضع هنا قد اختلف، فعندما نقلت مدرستي إلى مدرسة أخرى، هذه المدرسة أصبحت تعرفني بسبب أبي الذي سمعته تحكي عنه وعن أخلاقه الطيبة، الغريب أن أبي لم يصنع معجزات ليثبت أخلاقه، بل كانت ربما صدفة أو فرصة ليعرف الجميع أن هذا التاجر يتاجر بالخير لا أكثر ولا أقل. أكملت العامين المتبقيين، وتخرجت من المدرسة بامتياز كعادتي، وأردت أن أختار مجال دراستي في الجامعة، لكن لم أفكر في مجال معين من قبل، أفكر أحيانا بعلم النفس فأنا أجيد هذا المجال في حياتي الخاصة، غير أنني أعشق أي شيء يذكرني بالنفس وعلومها، كنت دائما أشعر أنني مريض نفسي، أو أنني أعاني من بعض الاضطرابات العقلية او النفسية لا أعلم، لكن هذا لا يعني أنني غير عاقل، بل

أشعر أحيانا أنني لابد من أن أزور أحد الأطبة النفسيين فأخبرهم بقصتي وهل هذا طبيعي أم ماذا، وفي الحقيقة معظم أطباء علم النفس يصابون بمرض نفسي أو عقلي جراء مقابلاتهم المجنونة مع مجانين مختلفين، هذا لا يهم، لكنني اخترت هذا المجال وأنا على استعداد أن أكمل حياتي مع علم التخاطر العقلي الذي أدخلني علم النفس من أوسع أبوابه، فأنا أؤمن وبقوة بفكرة التخاطر العقلي، وهذا ما سيشجعني على تكملة هذا المجال والخوض في تخصصاته المتعددة لأستكشف غوامض هذا المجال السري.

سافرت من بلدي المغرب إلى دولة أجنبية أستطيع من خلالها دراسة هذا المجال، فمن المؤسف أن أجد العديد من هذه المجالات الرائعة والجديدة خارج عالمنا العربي بمستويات عالية ولا أجدها في منطقتي، وهذا ما جعلني أسافر إلى تلك البلاد. تعرفت على أشخاص جدد وبشخصيات مختلفة وهذا ما يتطلبه مجال دراستي، في كل يوم كنت أتعرف على العديد والعديد من الشخصيات، لكن لم أقابل في حياتي شخصية كتلك الشخصية التي قابلتها بالأمس والتي لم ولن أجد مثلها في حياتي المستقبلية أبدا. كانت مجموعتي الدراسية مكونة من ٤ أشخاص، (حاتم، عزيز، عمر،مؤمن) كنا كاليد الواحدة في كل شيء، كنا نعيش في نفس البيت الذي استأجرناه بالقرب من الجامعة. كنت قد تعرفت عليهم من مواقف مختلفة جمعتنا نحن الخمسة. فلقد تعرفت على عزيز في بداية العام الدراسي إذ كان يقف بجانبي عندما أردت أن أدفع مصاريف الدراسة، وأخذنا الحديث عن الدراسة والجامعات، وكان هذا الشاب الإماراتي في قمة الاحترام والأدب مما دعاني أن أطلب منه العيش معي نتقاسم مصاريف السكن، فوافق. أما حاتم فقد تعرفت عليه هو ومؤمن من صديقي عمر الذي كان معي في نفس الفصل،

وكان هذا الشاب قمة في الذوق والأدب وهذا ما جعلني أرتاح عند الحديث معه، وكان محل ثقة كما كنت أسمع عنه، وكان يعاني من العيش في هذه البلد بحكم أنه لم يتعلم لغة البلد، فقد جاء من مصر من أجل الدراسة، وكنت أجد علامات الحيرة على وجهه في بداية العام الدراسي، لم يكن من النوع الذي يتكلم كثيرا حتى يخبرني بقصته، لكنني بعد أن اقتربت منه أخذنا الحديث إلى ما كان ينبغي، فقد أخبرني أنه يعيش في فندق بعيد عن الجامعة، ولم يجد أي منزل مناسب ليقيم فيه، فأخبرته بأن يسكن معنا أنا وعزيز ،و لكن بعد أن علمت أنه لا يملك المال الكافي لمصاريف السكن طلبت منه بأن يسكن معنا وبدون مقابل، لكن بدون أن يخبر عزيز عن أي شيء. في البداية لم يوافق لكن أحيانا لا نوافق على أمور يلزمنا فيها الواقع الأليم فنوافق رغما عن أنفنا. عشنا نحن الثلاثة في هذا البيت نتقاسم المصروف بيننا، وكنا على استقرار حتى حدث ما حدث. لدى عمر صديقان كما أخبرتكم عنهم من قبل، حاتم ومؤمن، كان حاتم يتصف بالنباهة وبعض التكبر، كان لا يحب أن يؤخذ عنه صفة الشخص الجاهل، فكان عند طرح أي سؤال تجده يبادر بالجواب حتى وإن كان مخطئا، لكن أحيانا يصدر بداخلنا أصوات تخبرنا بأن تتولى قيادة المحادثات، التي يلفت الأنظار إلينا، وكان حاتم من الطلاب الفائقين في الفصل، لكنه كان غير محبوبا بين الناس، لصفة أخبرتكم عنها من قبل. أما مؤمن فكان شخصا مخلصا إلى أبعد الحدود، يحب أصدقاءه كثيرا، لا يمكنه الاستغناء عنهم في أي لحظة واحدة، لأسباب سأحاول معرفتها، لكن ما كان يعيبه أنه لا يهمه ما يقوله، يرمي بالكلمة ويقوم بنسيانها في الثانية التي تليها، يتكلم ويتكلم ويشتكي لسانه منه، وهذا ما كان يزعج أصدقاءه منه. من الوهلة الأولى أردت

أن أكتشف عوالم هذه الشخصيات، بصفتي أتعلم علم النفس، والشيء المزعج هو أننا جميعا ندرس في هذا المجال، والأكثر إزعاجا هو عندما تجد شخصا يتعلم علم النفس ويقابل العديد من المرضى والعديد من الشخصيات التي امتلكتها الاضطرابات السلوكية والوجدانية ويريد تطبيق كل ما تعلمه في مجاله على جميع الأصناف من البشر، فيتهم الشخص السليم بالتخلف لسلوك قام به، أو يحكم على الشخص السعيد بأنه وحيد لموقف رآه، وهذا ما كان يزعجني في طلبة الفصل، الجميع يعتقد بأنه هو طبيب الجيل وأنه يفهم جميع الشخصيات، وأنه قادر على تحليل العقل الباطني لعقول البشر ، فيتخذ كل من حوله مريض، وهو الطبيب الوحيد الذي يعالج تلك العقول المريضة.

*****

الفصل السادس

(نسخة بشرية)

"من السهل جدا أن يكون لك صديق، لكن أن يصدقك فعلا فهذا أمر صعب."

في يوم من الأيام، كنا في المنزل نتحدث عن الدراسة أنا وعزيز وعمر، وبعد فترة ليست بوجيزة، اتصل مؤمن على عمر وأخبره بأمر ما، هل هو أمر خاص جدا أم ماذا؟ لأنه لم يخبرنا أي شيء عن تلك المكالمة، والغريب في الأمر أنها لم تكن مكالمة عادية، بل عند المكالمة احمر وجه عمر وأغلق الهاتف فورا. شيء عجيب، لم يلاحظ عزيز ما لاحظته أنا، وربما حتى لم ينتبه إلى اسم المتصل، لكنني أنا أدقق في مثل هذه التفاصيل وأتابع جميع اللحظات والأمور الدقيقة والتي غالبا ما تكون لا تعنيني، ولا يجوز لي أن أعرفها حتى، لكنها الطبيعة البشرية التي تكمن في الفضول الداخلي العقلي والتي تجاوزت حدها عندي، لأمور قتلت جمودي وأنا صغير، جعلتني أتحمل المسؤوليات ومن ثم ألاحظ التحركات، وبالفعل للواقع أثر كبير في ذلك، جعلني أرتعب منه ومن سماع لفظه، جعلني أتوقع منه كل شيء لا تتوقعه الأذهان، وفي كل مرة يخطر ببالي أن شيئا ما ينتظرني، لا أعلم، ربما أنا الذي أنتظره ليأتي لكن هنالك أمر صاعق سيحدث في المستقبل البعيد. كل ما في الأمر أن أحدهم كان وراء الباب في الساعات المتأخرة من الليل، من هناك؟ كنت قريبا من المطبخ حتى أجهز نفسي لأي ردة فعل. كان يحاول فتح الباب لكنه لم يستطع. عزيز كان في الداخل، وعمر كان أيضا في الداخل، إذا من

وراء هذا الباب؟! وفي النهاية استطاع فتحه. هنا تخلت عني ضلوعي وسافرت، هنا اهتز بدني وارتعش، أمسكت بالمقلاة حتى أضربه بها، بمجرد أن فتح الباب كان شيئا لم أفهمه إلى الآن. وجهه ملون بألوان الطيف، وملابس كجلد الأسود ومعه عصا بيده، ما كان مني غير أن ضربته على رأسه بالمقلاة ضربا عنيفا وعدة مرات حتى سقط على الأرض. رآى عمر هذا المشهد (المخيف) بالنسبة لي وصرخ: ماذا فعلت يا أحمق! هذا مؤمن، هل جننت؟!

مؤمن؟! وماذا أتى بمؤمن في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ وماذا يرتدى مؤمن ولم كل هذا؟

كان عمر يحاول إيقاظ مؤمن من الإغماء الذي أصابه وقال: إنه يوم ميلادك يا أبله، كانت ستكون ليلة استثنائية لك وأردنا أن نفاجأك بها، لكنك لا تحسن التصرف.

هل سرعة البديهة أصبحت سوء تصرف؟! لم أكن أعلم ذلك. حاولنا إيقاظ مؤمن لمدة دقائق ثم استطاع أن يفيق وهو يقول الكلمات المشهورة التي يقولها الجميع (أين أنا؟ وماذا حدث؟).

يوسف:ماذا أتى بك إلى هنا يا مؤمن في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

مؤمن: لقد أتيت لأقضي هذه الليلة معكم، لنحتفل بيوم ميلادك .

يوسف: لقد نسيت أن اليوم هو يوم ميلادي، ومع هذا فأنا لا أستطيع أن أن أقوم بأي شيء، فلدي أمور مهمة يجب أن أنتهي منها.

و دخلت غرفتي على الفور. لا أعلم إن كان ما فعلته هو الصواب لكن كل ما كان يشغل تفكيري هو حالي في هذا البيت. بدأت أشعر أن مكاني ليس هنا وإنما مكاني هو

عالم خاص بي، أنا فقط، أحيانا تشعر أنك بحاجة للجلوس أمام نفسك، تقاضيها إما الإعدام وإما الحرمان من أمور كانت تعشقها، هذا الشعور هو الذي انتابني وقتها، روحي خاطبتني (هل أنت على ما يرام؟)، لم أجد جوابا لأجيبها، أحيانا يجب أن تقيم الأمور التي لم تقم بها بعد حتى تقوم بها على أكمل وجه، وهذا ما فعلته. منذ صغري كنت عندما أشعر أن روحي قد خرجت مني، أتخذ قرارات كبيرة فقط لأستعيد روحي، كنت أضحي من أجل أمور كانت سببا في استقراري وسعادتي، لكنها كانت تخالف سعادة روحي فأستبعدها فورا من قائمة حياتي. لا أعلم إن كان هذا الشيء إيجابيا أم سلبيا لكنني كنت أفعله، وكان صعبا علي أن أتغير فهذا أنا، ولن يغيرني سواي، ولم أكن أتوقع أن يغيرني عقل كعقل تلك الشخصية الباهرة التي سأخبركم عنها، فقد غيرتني بالكامل وإلى الآن لم أعرف سرها الفعال، لكنني سأعرفه في نهاية قصتي. التقيت ذات يوم بفتاة تدعى(جوان)، هذه الفتاة منذ أن رأيتها في المرة الأولى اعتقدت أنها خيال، اعتقدت أنها ليست في عالمنا، كنت أعتقد أنها خارج نطاق الواقع الذي نعيش فيه، فقد كانت نسخة بشرية مني، نعم كانت تشبه ملامحي وتشبه ملامح روحي التي أخبركم عنها، وتشبه عقلي الذي لم أجد مثله أبدا، هل يعقل هذا؟! كانت هي أنا ولكن النسخة الأنثوية، بمجرد أن أفتح شفتاي للنطق تكون قد فهمت ما أقصده، بنظراتي تؤشر علي، وبنبض قلبي تحس بي، تجرأت وتقربت منها شيئا فشيئا، تعمقت معها خلال الأيام، أصبحت لا أجد السعادة إلا معها، وهذا شيء طبيعي، فالإنسان لا يجد راحة أفضل من راحته مع نفسه. مع أن ملامحها لم تكن جذابة إلا أن ما لفتني هو طريقة كلامها وأسلوبها، وحتى عقلها المدبر. أمضينا ما يقارب السنتين

معا، لم أفكر في أي شيء سوى أننا كنا ندرس سويا، ونقضي معظم أوقاتنا سويا. إلى أن جاء يوم انقلبت من بعده كل الموازين. في يوم من الأيام استيقظت من النوم مبكرا، ذهبت وأحضرت قهوتي الصباحية مع قطعة الكعك الذيذ وجلست على الأريكة. كنت أفكر وأفكر، وهذا شيء طبيعي أقوم به كل يوم، لكن الأمر الذي لم يكن طبيعي هو زيارة شعور جديد إلى روحي، جاء لقلبي إحساس لم أشعر به من قبل بتاتا، كان هذا الإحساس هو شعوري تجاه جوان. مع مرور السنتين لم أفكر في لحظة أن أحبها. ولماذا الآن؟! لماذا لم أفكر في هذا من قبل؟! لقد جلست أفكر ماذا لو تزوجتها وقضيت معها عمري المتبقي، ومع من؟ مع الشخص الذي يشبهني تماما، مع الشخص الذي أشعر بسعادتي معه، كان لابد من أن أستشير أحدا ليساعدني في الوصول إلى حل، وبالطبع لم يكن لدي أحد سوى هذا الشخص الذي أثق به دائما (عمر). ذهبت إليه فوجدته نائما، لم يكن لدي حل آخر، فبدأت بإيقاظه من نومه، وبالطبع فزع من الطريقة التي أيقظته بها لكن أخبرته بأنني أريده في أمر هام في الصالة، ما كان من ذلك الشخصية الرائعة التي لطالما كان يخلص لأصدقائه ويسعى لسعادتهم إلا أن يذهب ويغسل وجهه ويتجه إلى الصالة، وهنا بدأت قصتي.

*****

الفصل السابع

(التفكير في الواقع أمر ممل)

"ثق بالله وابتسم عندما تتخيل ما قد يكافئك به، وبعدها استعد للأجمل."

أخبرت عمر عن كل ما كان ببالي، عن كل شيء بالتفصيل الممل، أعلم أنني أدرس علم النفس، أعلم ذلك، لكنني كما قلت في بداية قصتي أشعر أنني بحاجة لأزور طبيب نفسي ليتفهم حالي، أشعر أن بداخلي كلام لن ينتهي أريد أن أخبره لأحد، وعمر هو الشخص المناسب الذي سيتحملني ومن ثم سيتفهمني وأتمنى أن يعطيني بعضا من نصائحه.

يوسف: بصراحة يا عمر، أنا أشعر أنني أحبها، لكن حبي لها كحب لن ينتهي، أصبحت أفكر بها وكأنها لا تخرج من بالي، كلما حاولت التفكير في شيء ما تقطع حبال تفكيري وتجبرني على التفكير فيها، إن هذا اليوم هو أول يوم يخطر على بالي هذا كله، لكنني متأكد من أنها ستظل متمسكة بحبال عقلي خوفا من السقوط في بئر المتاهات، العجيب بالأمر أننا نشبه بعضا البعض في كل شي، في كل شي يا عمر، في الشخصية وفي التفكير وفي التنظيم وحتى في المواقف الحياتية، هل يمكنك أن تتخيل أن الأمور التي حدثت معي منذ زمن بعيد وقبل أن أعرف أي منكم، كلها حدثت معها بنفس الترتيب والدقة، وحتى في نفس الوقت ! هذا شيء لا يعقل، هذا الشيء لم أره إلا في حكايات (الكرتون) وقصص الخيال التي لا واقع فيها، أنا أتحدث اليك وبكل شفافية

هذا ما حدث بالفعل. لقد أخبرتك من قبل أن والدتي قد تطلقت من والدي، وأن والدي هو من اهتم لأمرنا وساعدنا لنقوم على أرجلنا، وأن والدتي أهملتنا ولا تعرف أي شيء عنا، أخبرتك بذلك كله، هل تصدق أن الأمر ذاته حدث مع جوان ! والدها قد طلق والدتها لكنها تربت عند والدتها، ووالدتها هي من ساعدتها على النهوض وعلمتها ما علمتها، ووالدها لم يسأل عنها ولو للحظة، إنه الأمر ذاته، حتى أن لديها أخ قد مات إثر تعرضه لحادث سير وهو ما حدث مع إخوتي من قبل. هذا كله لم يكن صدفة، فهذا واقع لا يمكننا الهروب منه.

عمر: لكنك قلت من قبل يجب أن نهرب من واقعنا.

يوسف: لكن ليس هنا، ليس هنا يا عمر، أنا أحبها ولا أريد أن أخسرها، هناك أشخاص في واقعنا نتمنى الحصول عليهم بصفات معينة تجذبنا، لا يمكننا الخضوع لأمر هذا الواقع ونتخلى عنهم عند توافرهم، لقد عانيت في حياتي كثيرا يا عمر، لقد تعبت تعبا استنكر لوجوده التعب، ولم أتمنى في حياتي أي شيء سوى السعادة في هذه الحياة، وهأنذا أرى السعادة بأم عيني وتريدني أن أفقده.

عمر: لم أقل لك أن تفقده، لكن عليك أن تفكر جيدا كيف ستخبرها بذلك، لأنك إن لم تحسن التصرف ستخسرها.

يوسف: لا أعلم، سأفكر جيدا اليوم، وربما سأخبرها غدا في الجامعة.

أثناء حديثي مع عمر كانت هنالك آذان صاغية، تسمع لكل الكلمات التي كنا ننطقها، (عزيز) كان ينصت لما نقول، وهبت نار الغيرة والحسد في قلبه، اتصل على حاتم ومؤمن وأجروا مكالمة دامت لدقائق لكن بعدها خرج من البيت لساعات طويلة.

عمر: أريد أن اطرح عليك سؤالا، هل في نظرك ستكون هي أيضا تبادلك نفس الشعور؟

يوسف: في الحقيقة أنا متأكد بأنها تحبني، لكن كلانا لا يعرف كيف يتصرف، وكما أنا الآن حائر في أمري، هي أيضا الآن وفي نفس الوقت حائرة في أمرها.

عمر: إذا أخبرها بأنك تريد أن تقابلها بالغد وجهز الكلام الذي تريد أن تخبرها إياه وكن واثقا من نفسك ولا تخف، وستجدني معك في أي لحظة احتجتني فيها.

يوسف: شكرا لك يا صديقي.

ذهبت إلى غرفتي أفكر فيها، جلست أفكر بكل كلمة يمكن أن تقولها، والحوارات التي ستدور بيني وبينها، حتى حل نصف الليل وأنا مازلت أفكر.

رجع عزيز إلى المنزل وذهب إلى الصالة، لماذا تأخر في الرجوع؟ ذهبت إليه فوجدته جالسا مبتسما!

يوسف: ماذا حل بك يا عزيز؟

عزيز: لا شيء، لماذا تسأل؟

يوسف: فقط لأنك لم تعتد على الرجوع في هذا الوقت المتأخر من الليل.

عزيز: كنت مع أصدقائي حاتم ومؤمن، وهم على قدوم الآن.

يوسف: الآن! إنها الساعة الثانية عشرة في منتصف الليل يا عزيز ، ماذا تقول.

عزيز: وماذا بها ، هذا بيتي وأنا حر أفعل ما شئت.

يوسف: عزيز كف عن مضايقتني وإلا سأضربك.

عزيز: هيا قم بذلك.

لم أستطع تحمل هذا الصداع، فقمت بالخروج من البيت وطرقت الباب بعنف في وجه المقصود. وعند النزول من الدرج وجدت حاتم ومؤمن في قدومهم نحو البيت.

حاتم: إلى أين أنت ذاهب يا يوسف؟

يوسف: لماذا تسأل؟

حاتم: ماذا بك يا صديقي، هل أنت على ما يرام؟

يوسف: نعم أنا على ما يرام، ماذا عنك؟ أقصد ماذا عنكم؟

حاتم: بخير بخير، هيا اذهب إلى حيث قصدت.

يوسف: لن أنتظر تعليماتك يا هذا هل سمعت؟

مؤمن: ماذا بك يا يوسف هدئ من روعك يا صديقي؟

و بعدها تركتهم وذهبت إلى الشارع في الظلام الدامس. لماذا هذا هو واقعي؟ لطالما كان بيني وبين الناس عداوة، لا أحبهم ولا يحبونني، نظراتي الحادة تزعجهم، وكذلك كلامهم الجارح يزعجني، كنت دائما ما أبحث عن نفسي داخلهم فلا أجدني، لا يشاركوني أي شيء معهم، كنت وما زلت وحيدا، حتى الشخص الوحيد الذي أحببته لا أعلم إن كان يحبني أم لا، يا لهذا الزمان، سأخبرها غدا، غدا وليس بعد غد، فإما أن تتغير حياتي للأفضل، وإما سأخسر إنسانا غير روحي وستتغير حياتي من بعدها للأسوأ. وفي اليوم التالي، وعلى غريد الطيور الذي أكرهه، والذي يذكرني بالماضي القاسي، استيقظت بنشاط فاني، لم أنم على الإطلاق، أو لنكون أكثر واقعية فهذا الواقع يحب نفسه فقد نمت لساعة واحدة فقط، وفي هذه الساعة حلمت بحلم غريب. لم أعتد أن أحلم في حياتي لكن في تلك الليلة حلمت حلما غريبا، حلمت ب (جوان)، نعم

حلمت بها وكانت تلقي علي كرات صغيرة، لكنني كنت أتألم من تلك الحجار مع أنها مثل الحصى. لم أفهم ما ذلك الحلم، في الحقيقة لقد توترت، لا أعلم السبب، خرجت من البيت وأرسلت لها رسالة أنني أريد مقابلتها، فوافقت. وأنا في طريقي، وكل دقة من دقات قلبي تطير وتتسابق، إحداها يطير فرحا والأخرى تطير خوفا، هذا السباق في الطيران حملني إلى عالم غريب مهجور من الضياع، إلى عالم الأحلام الذي سيريحني من التفكير في الواقع، لكنني عندما رأيتها من بعيد بحثت عن نفسي فلم أجدها معي.

*****

الفصل الثامن

(رأيتهما معا)

"احذر ألف مرة من الذي تعطيه فرصة أخرى."

جلست معها بدون كلام، تعجبت هي من هذه المقابلة التي كانت علامة استفهام أكثر من أنها علامة تعجب، فهي تفهمني من نظراتي وملامح وجهي، فهمت أنني أريد أن أخبرها بأمر ما لكنها عجزت عن معرفته. مضت الساعات وبدأ الكلام يخرج شيئا فشيئا، جلسنا ما يقارب الخمس ساعات نتحدث. بعدها ودعتها وودعتني وعاد كل منا إلى بيته. عدت إلى البيت وكان عمر ينتظرني لأخبره ما حدث معي، لكن عزيز كان جالسا هو أيضا في نفس الصالة التي كان يجلس فيها عمر. نظر إلي عمر نظرة (هيا أخبرني) لكنني أشرت إليه بأن ينتظر خروج عزيز من الصالة. (ألن يخرج؟!) هذا كل ما كان يشغل بالي، فكنت على أحر من الجمر، كانت بداخلي نار تشتعل، نار تريد أن تتكلم، لا أستطيع أن أنتظر أكثر. عزيز ينظر إلي وكأنه يعلم بالذي سأقوله، في هذه الحالات التي نادرا ما تحدث، تظهر لي تلك الشخصية التي تعودتم عليها (أمي) ، ماذا تريد مني؟! لماذا أسمع أصواتها دائما في مثل هذه الحالات!؟ هل للتخاطر العقلي يدا في ذلك؟ هل لأن عقلي دائم العمل فيستحضر أصوات أشخاص أثرت في حياتي؟! العجيب في ذلك أن أمي عندما تحضر أسمعها تقول أمورا لم أسمعها منها من قبل وأنا

صغير، كأن تقول (أحبك يا بني)، لم أعرها اهتماما، فقد تعبت من الانتظار، ولم يخرج عزيز من الصالة، ونمت نوما عميقا أكمل للصباح التالي.

رنات هاتف محمول أيقظتني، لا لم تكن هاتف محمول، بل كانت أضغاث أقوال لم أفهمها، وهذا لم يكن أمرا جديدا، لكن الجديد في الأمر أنني استطعت أن أميز هذه المرة صاحب الصوت، إنه... إنه ... لابد من أنه عزيز لكن ماذا يقول؟ سمعته يكلم أحدا في الهاتف، ويقول(لنجعلها في تمام الساعة الرابعة عصرا). تجعل ماذا؟ أنا لا أفهم. بدأ الشك يخدع عقلي، نهضت من السرير وقمت إلى الصالة بحثا عن عمر، فوجدته جالسا على الأريكة.

يوسف: صباح الخير يا عمر

عمر: صباح الخيرات يا يوسف، كيف أصبحت؟

يوسف: لا أعلم، لا أعلم يا صديقي هل أصبحت بخير أم أصبحت على أمور لم أفهمها.

عمر: هيا أخبرني ماذا حدث معك في الأمس؟ هل أخبرتها؟

يوسف: لا

عمر: ماذا تقول؟! لم تخبرها! لماذا ؟!

يوسف: لا أعلم، هنالك أمر ما منعني، ما زلت أبحث عن هذا الأمر. عمر أنا في أسوأ أيامي، لقد تعبت نفسيتي، وانهارت عقليتي، لم أعد أفكر أي شيء، وإن فكرت لا أحسن التصرف. لقد انهار كياني عندما رأيتها، لا أعلم، لم أملك الجرأة لأخبرها بكل ما كنت أشعر به، تحدثنا كثيرا لكن لم يكن في الحب، يا إلهي أصبحت أرتعش عند

سماعي لتلك الكلمة، أصبحت لا أحلم إلا بها، ولا أفكر إلا بها، حتى إن أردت أن أتخذ أي قرار، أتخذ قرارا خاطئا لأنني كنت أفكر بها، ما الحل لواقعي المزعوم؟

واقعي الذي لا يتركني وشأني، كلما فكرت بالهروب منه أجبرني على الرجوع إليه، أجبرني على تقبله بمذاقه السيء الذي لا يُنسى.

عمر: وما الحل إذا؟

يوسف: لا أعلم يا عمر، ربما سأنتظر قليلا، ربما لو أخبرتها الآن ورفضت قد أخسرها نهائيا، وهذا ما قد يهوي بي إلى الهاوية .

تركت عمر في الصالة وذهبت إلى غرفتي، وبينما أنا في طريقي وجدت (عزيز) مرتديا ملابسي وباتجاهه نحو باب المنزل. لماذا يرتدي ملابسي؟! وإلى أين هو ذاهب؟!

يوسف: عزيز، لماذا ترتدي ملابسي؟

عزيز: مم في الواقع لقد نسيت ملابسي مبللة ولم أقم على تجفيفها إلى الآن.

يوسف: لكن هذا لا يمنعك من أن تسألني.

عزيز: يمكنني أن أخلعها إن أردت؟

يوسف: لا، لا يهم، هيا لا أريد أن أتركك تتأخر على موعدك الغرامي.

عزيز: هههه لا بل سأقابل صديقي لم أره منذ زمن بعيد.

لا أعلم لماذا لكنني لم أصدقه، تركته يذهب، لكنني لم أذهب. تبعته بخطوات ناعمة، ومع كل خطوة اشتد الفضول، تسارعت ضربات قلبي بسببها، أفكر بأمور شتى، خطر على بالي عدة أشخاص، لكن لم يخطر على بالي ذلك الشخص. شاهدته يسلم عليها، ويجلس معها، وهي مبتسمة، ارتجفت عيناي، لم يحملني عقلي، لم أستطع أن

أشاهد بسبب أقدامي، عيني لم تفكر، ووجهي لم يسمع أي همسة مما قالاه، نعم كان يجلس مع (جوان) ، الشخصية التي تشبهني تماما، لكنني من الآن لا أشبهها، فأنا لا أقوم بمثل هذه الألاعيب، لقد وعدتني بأن تخبرني بكل خطوة تقوم بها، ووعدتها بالمثل، لمَ لمْ تخبرني بهذا؟! انظروا إليها كم هي سعيدة! هل هنالك علاقة تجمعكما ببعضكما أم ماذا؟! هل أنتِ سعيدة هكذا؟! وأنا كالأحمق ظننتها تحبني، يا للعقول التي لا تذوب، لم أذق طعم هذه الحياة، طعمها الذي أذاقتني إياه أمي التي حضرت في ذلك الموقف الذي أصابني بالقشعريرة، همست في أذني تقول (كل شيء سيكون على ما يرام) لا يا أمي لم يمض أي شيء على خير في هذا الواقع الذليل، هذا الضيم الذي يلاحقني صغيرا وكبيرا، حتى الشيء الوحيد الذي أحببته في حياتي يسلبه مني كالفقير الذي أعطاه الله مالا ليتنعم به فجاءه سارق نهب كل نقوده وهو لا حول له ولا قوة. أردت بكل قواي أن أهرب من ذلك المشهد الذي أزعجني فلم أستطع، لكنني أجبرت نفسي على الرجوع. عدت إلى المنزل وفي عيناي الكثير، لم أستطع التخلي عن أي دمعة من دموعي، فهنالك أمور أعظم تنتظرني لأتخلى عنها. رآني عمر من بعيد.

عمر: يوسف، ماذا بك يا صديقي؟!

لم أنطق بأي كلمة. لكن قلبي كان يصرخ، لو أنه جوان لفهم ماذا أقول.

عمر: يوسف هيا تعال معي إلى الصالة.

ذهبت معه ووجهي يقابل الأرض التي اشتقت لها، لم أتعود أبدا أن تشاهد الأرض وجهي على هذا الحال، لقد كانت الأرض تتشقق عند صعودي عليها، كم كنت قويا عندما كنت لا أسمح لأحد بأي يمس كرامتي.

عمر: يوسف، اهدأ وأخبرني بما حدث معك.

يوسف: لقد كنت على حق، كان لابد من أن أكلمها بالأمس، لكنني تأخرت، وذلك الأحمق الذي يدعى عزيز أخذها مني بسهولة، أنا لا أفهم لماذا فعل هذا كله، ألهذه الدرجة يكرهني؟! هل يريدني أن أقطعه إربا حتى يتعلم؟

عمر: هل رأيت عزيز وجوان معا؟! يوسف: رأيتهما معا وكانت سعيدة جدا بذلك.

عمر: حسن اهدأ، لا تقم بأي فعل أحمق تندم عليه فيما بعد، خذ نفسا عميقا ومن ثم سنفكر نحن الاثنان في الحل، ولا تقم بأي فعل خاطئ عندما يأتي عزيز إلى المنزل هل سمعت؟ أنت متهور وأنا أعلم ذلك، لكن هذا قد يهدم كل شيء سنخطط له، هل هذا مفهوم؟يوسف: حسن لا بأس.

عمر: بماذا تفكر؟ ما هو منتهى تفكيرك؟

يوسف: أفكر في الانتقام..

عمر: تفكر بماذا؟! الانتقام! وبمن ستنتقم؟

يوسف: سأنتقم من جوان..عمر: ماذا! هل جننت يا رجل؟! أنتم لم تكونوا على علاقة حتى، فكيف لك أن تنتقم؟ أعني أنها لن تهتم لأمر كهذا.

يوسف: بل ستهتم، أنا أعرفها، كنت أقابلها كل يوم بلا انقطاع، لكن بعد أن أكون على علاقة مع فتاة غيرها ستجدها تلهث من كثرة الركض.

عمر: وهل تجد هذا هو الحل المناسب؟؟يوسف: بالطبع، وسأريك ماذا سأفعل.

عمر: إذا لا تخبرني أي شيء عن تصرفاتك ما دمت لا تأخذ بالنصيحة وافعل ما يحلو لك..يوسف: كما تريد.

الفصل التاسع

(زليخة)

"عند أي إنجاز ولو بسيط، كافئ نفسك بهدية واكتب عليها (لقد فعلتها يا بطل)، جربها لأنك ستعيدها."

في الصباح التالي، استيقظت من النوم مبكرا حتى يتسنى لي العمل بكل طاقة وحيوية، أمسكت هاتفي المحمول وفتحت أقلب الجوال فوجدت رقم إحدى صديقاتي في المدرسة كان اسمها (زليخة) وكانت من الجزائر ، أرسلت لها رسالة نصية أخبرها بأنني يوسف الذي كان معها في المدرسة، وعندما أجابت سُرت للغاية عندما عرفتني، وتبادلنا الحديث مع بعضنا البعض وأخذنا الكلام إلى أيام بعيدة قضيناها في المدرسة الثانوية، والعجيب في الأمر أنها صارحتني بأنها كانت تحبني أثناء الثانوية العامة لشجاعتي وأنها لم تستطع إخباري بهذا الشيء وقتها، عندها أردت أن أخبرها بأنني الآن أحبها وأريد أن أتعرف عليها أكثر وأكثر، فوافقت. يوم بعد يوم، وتزيد علاقتنا بشكل كبير، نتحدث مع بعضنا البعض في كل دقيقة وثانية، الجميل في الأمر أنها أحبتني أكثر مما توقعت، وهذه الفتاة تعتبر ملكة جمال تمشي على الأرض، كل من رآها تمنى نظرة منها عن بعد. تقابلنا مرارا وتكرارا، ومع كل ساعة نقضيها سويا يزداد تعلقها بي. لم أنقطع عن جوان في تلك الفترة بالتأكيد، فحديثنا وجلساتنا كانت غذاء لعقولنا وللتخاطر العقلي الذي يجمعنا، العجيب في ذلك هو اليوم الذي أخبرت به جوان عن زليخة وعن علاقتنا معا، فقد تعجبت من الموضوع لكنها لم تعر اهتماما كبيرا

للموضوع، فقط نطقت ب (افعل الشيء الذي يجعلك سعيدا). أنا من تعجب من ردها، فقد فعلت هذا كله من أجلها، من أجل أن تحس وتشعر بشعوري تجاهها. لم تكن كما أظهرت لي، بل كانت تهتم للأمر، فقد تغيرت معاملتها معي من بعد أن أخبرتها بأن هنالك من هو في حياتي، وأصبحت تسأل عنها وعن كيفية علاقتي بها. والأعجب من ذلك أن زليخة اقتربت مني أكثر وأكثر، لم يكن هذا هو هدفي، لم أكن أريدها أن تتعلق بي هكذا، لقد أصبحت مجنونها، هل هذا يعقل؟! وأنا في الحقيقة لم أحبها بالدرجة التي أحببت بها جوان، ولقد عجزت عن التفكير. لم أعد أروي أي شي لعمر، فقد وعدته بأن يرى نتيجة عملي، لكنني الآن أنا بحاجة إلى مساعدة. لقد وقعت في فخ تفكيري، ما هذا الذي فعلته يا يوسف؟! هل أنت غبي؟! أنا لست إنسانا عاقلا، أنا لا أزن الأمور! أنت حقا بحاجة إلى المساعدة يا يوسف، ستفسد كل شيء. ذهبت إلى عمر، ونظر إلي نظرة أظن أنني فهمت معناها.

عمر: هل تراجعت عن فعلتك؟

يوسف: في الحقيقة... لا أعلم، سأخسر شخصا ما، هل أخسر نسختي الأنثوية التي تفهمني بنظرة، أم أخسر الشخص الذي أحبني بجنون طوال تلك الفترة ؟ ولا أعلم، ربما إن تركت زليخة وذهبت لجوان وأخبرتها بأنني أحبها سترفضني، عندها سأخسرها ولن أراها ثانية، وبهذه الحالة أكون قد خسرت كلاهما.

عمر: هل انتهيت؟ أولا عليك أن تبحث عن قلبك داخل إحداهما، هل رأيته داخل جوان أم زليخة؟ زليخة أحبتك لكنك لم تحبها بهذا المقدار من الحب، والذي جذبك إليها هو جمالها أليس كذلك؟

يوسف: نعم فهي جميلة للغاية

عمر: الجمال يزول مع العمر، ابحث عن التي تفهمك عندما تفقد القدرة على النطق أو السمع، ابحث عن التي تسعدك بمجرد خطورها على بالك، ابحث عن التي تعطيك عقلها وتفكيرها حين يخدعك عقلك بالتفكير في الواقع، ابحث عن واقع جديد تستبدل به واقعك الذي لا تعرفه، ستخسر بالتأكيد لكن استعد لخسارة القليل بدلا من خسارة الكثير والكثير، أنت تعلم ما أقصده يا يوسف، لا تخسر من سيقف بجانبك حتى وإن رفضك، والله وحده أعلم، ربما لن ترفض وستعيش حياة أفضل من التي تعيشها، ثق بالله وسر في طريقك واثقا، ولا تيأس فالحياة لا تعطي شيئا لليائسين.

يا إلهي كم تمنيت أن أسمع هذا الكلام من قبل، كنت أسمعه من واقعي لكن على شكل سلبي يأمرني بالخسارة الدائمة ويرفض حرية التفاؤل والحب. ذهبت من الصالة إلى غرفتي وأحضرت ورقة وقلم وبدأت بتصفية الأمور. قضيت يوما كاملا في غرفتي ولم يُسمع صوت صرير الباب المزعج. انتهيت من كل الأمور وتأكدت بأن كل شيء على ما يرام وبدأت أعيش الأيام بروتيني اليومي. تعجب في بداية الأمر عمر من الذي أفعله، فقد اعتقد أنني سأقوم بأمر ما بعد تلك المحادثة الطويلة لكنني لم أقم بأي شيء بعدها، فظن أنني لم أقتنع بما قاله لي، لكن في الحقيقة كانت خطة ما تجول في بالي وأنتظر وقتها المحدد ليأتي حتى أقوم بها على أكمل وجه. وبالفعل، أتى ذلك اليوم الذي اتصلت به زليخة على هاتفي المحمول وأخبرتني بأنها كانت منذ يومين تقوم بعملية جراحية في ظهرها وأنها صرفت من الأموال ما صرفت ، فما كان مني غير أن أرسلت

إليها بعض النقود لكن بدون أن تخبر أحدا، وبالصدفة في نفس اليوم اتصلت على أختها وسألتها عن أحوالها، وبعد ذلك سألتها عن زليخة وكيف تقضي أيام صيفها فأخبرتني بأنها كانت تزورهم كل يومين وأنها بصحة جيدة، وهذا ما كان متوقعا مني، فسألتها عن تلك العملية المزعومة فأنكرت وأكدت أنها بحالة جيدة وأنها عادت من عندهم إلى بيتنا في الأمس. هذا بالفعل ما كنت أنتظره، تكذبين علي إذا. اتصلت على زليخة فورا وأخبرتها بأنني لا أستطيع أن أكمل حياتي مع شخص يكذب علي، بالطبع في البداية أنكرت لكنها لم تستطع أن تطيل في الإنكار بعد تلك الأدلة وبدأت بالبكاء وجداول الدموع لم تنتهِ، لكن كل ذلك لم يكن سببا في إقناعي، أصبحت أفكر كيف يمكنني أن أغلق الهاتف، وهي منهارة وتريدني أن أعطيها فرصة أخرى، لكن لا فرصة لدي للشخص الذي يكذب لينجو بفعلته، فقد كذبتي مرة والمرة تتلو المرة حتى يصبح الكذب عنوان لهويتك. احتفل عقلي عندما تركتها، قلبي نبض فرحا، وأخرج الدم المملوء بالخوف واستبدله بالدم السعيد الذي ينقل الفرح والراحة إلى القلب، الخطوة القادمة هي جوان.

*****

الفصل العاشر

(اشتقت لكم)

"في حزنك قبل فرحك، التفت إلى اليمين واليسار واحفظ الوجوه التي بقيت بجانبك."

في يوم الخامس عشر من شهر تموز، كان يوما مميزا جدا بالنسبة لي، فهذا اليوم هو اليوم الذي سأصارح جوان بحبي لها، وليس هذا فحسب، بل هذا اليوم هو يوم ميلادها أيضا، سأحاول أن أجعله مميزا وتذكارا جميلا للمستقبل، لذا دعوت أصدقائها المقربين مع العلم أنها ليس لديها عدة أصدقاء وهذا شيء مشترك بيننا فكلانا لا يحبه المجتمع الذي يحيطه لأسباب قد ذكرتها من قبل. دعوت أيضا عمر وبعض المقربين وبالفعل لم أدع عزيز، الذي أخبرتني جوان خلال الأيام أنه حاول التقرب منها وأنها رفضت ذلك، ولم تكن تعلم أن هذا هو مبتغاه، فقد اعتقدت أنه شخص لطيف يحب المساعدة والمشاركة، وعندما سألتها لماذا لم تخبريني بهذا الشيء؟ قالت بأنها تظن لو أخبرتني كنت سأواجه الموضوع بطريقة قاسية ولم تكن تريد أن تسلب سعادتي وتفكيري بمثل ذلك الموضوع. لم أستطع أن أقرر ما إذا كان هذا شيء جيد أم لا، فبمجرد أن رفضته فهذا أمر قد يخيفني، لكن بالتأكيد هي تعلم كم أنا أحبها وكل هذه الأمور المشتركة التي بيننا قد تزيد من فرصة قبولها. اجتمعنا في بيتي وأتى الجمع والحضور ليشهدوا على تلك الليلة السعيدة، وعندما حان الوقت المناسب جئت إليها قبل أن نغني ونحتفل وسألتها أمام الجميع.

يوسف: جوان، لقد كنت أنتظر هذه اللحظة منذ زمن بعيد، لم أكن أعلم أن واقعي كان ينقصه شخص آخر ليكتمل، الآن وأمام الجميع أخبرك بأنني أحبك وأريد أن أكمل حياتي معك فهل توافقين؟

جوان:....

لم تجب! بالطبع فهذا غير متوقع، وأمام الجميع بالتأكيد سيأخذها التوتر والتفكير.

يوسف:هل توافقين أن نكمل علاقتنا سويا يا جوان؟

هزت رأسها بالرفض، وبكسوف شديد. هنا احتلني الصمت، وقذفني صاروخ التوتر والصدمة، احمر وجهي، وارتجفت يدي، أما عيناي فهذا هو الوقت المناسب الذي احتفظت بدموعي من أجله. نظرت إلى عمر وهو ينظر إلي نظرة الحزين البائس، أنظر إلى غيره أجده يضحك، والآخر يهمس، والآخر يبكي، وأنظر إلى جوان تنظر إلي وكأنها طعنتني وتقول لي أنا آسفة. لم أصدق ما سمعته، حاولت جوان أن تهدئني فقالت لي (أنا أتأسف منك) لكنني خرجت من البيت سريعا، وعمر تبعني إلى الخارج.

عمر: يوسف انتظر لحظة، أريد أن أتحدث معك، من فضلك قف للحظة.

توقفت.

عمر: أعلم بأنك في أسوأ حالاتك، وأعلم بأنك لم تتوقع ذلك، لكنها ليست نهاية العالم يا صديقي.

يوسف: لكنها نهاية واقعي المزيف.

عمر: لا لا تقل ذلك، إنها بداية واقعك الحقيقي، لقد أخبرتك من قبل أنها من الممكن أن ترفضك، وهذا لا يعني أنها لا تحبك، بل من هنا يجب أن تزداد علاقتكما كأصدقاء،

الصداقة لا تقتل الحب، بل الصداقة تعني الحب،ربما ليس الآن، ربما في وقت آخر، أنت الآن تجده الوقت المناسب لكنها لا تجده مناسبا لها، وأنا معك يا صديقي في كل وقت.

هنا سمعت همسات غير مفهومة، من صوت كان يلازمني طوال حياتي، سمعتها تقول (لقد مات يوسف) وأعادتها مرارا وتكرارا، ومع كل مرة تعلو نبرتها، لا لم أمت يا أمي، اتركيني وشأني، ماذا تريدين مني، هذه حياتي وليست حياتك، لا أريد أحدا في واقعي، اخرجوا منه، ما زلت أصرخ بهذه الكلمات حتى .... لحظة!شعور غريب، إحساس قاس، حين تدرك أنك تشعر للمرة الأولى بالرؤية، اغمض عيناك لمدة خمس ثوان، ثم افتحهما، هذا ما أحسست به للمرة الأولى عندما وجدت أمي أمامي! تنظر إلي من الأعلى، أين هذا؟ أين أنا؟ ماذا يحدث لا أفهم؟! أين هذا المكان؟ صرخت أمي صرخات يصحبها البكاء، أمي ما بكِ؟! أتى الجميع مع أبي وإخوتي الستة! ماذا يحدث يا بشر؟! أين أنا؟! لم أنا في المستشفى؟! أتى الطبيب يبكي عندما رآني قائلا: حمدا لله على سلامتك يا بني، عافاك الله يا بني..هل كنت مريضا أم ماذا؟ هل كنت في عملية جراحية أم ماذا حدث؟ لم أستطع الكلام، فقط أنظر بعيني، وأستمع. أمي كانت تبكي كثيرا، لم أراها على هذا الحال من قبل، أمي التي لم تسأل عني أبدا أراها أكثرهم بكاء علي..الأب: الحمد لله الذي عافاه من تلك الغيبوبة التي صاحبته لمدة ثلاث أسابيع.

غيبوبة! أنا كنت في غيبوبة؟! كيف ومتى؟! وكم عمري الآن، أشعر أنني صغير في السن؟ أنا لا أفهم أي شيء. عدت إلى المنزل بعد مدة من الزمن وبعد استيقاظي من تلك الغيبوبة كما يقولون، عدنا أنا وأمي وأبي وإخوتي جميعا إلى نفس البيت، لا أعلم

كيف لكن هذا ما حدث، كنت أسأل أمي عن أصدقائي ولم أرَ أي من عمر وعزيز في المستشفى فلم تعرفهم. بالتأكيد فلم أخبرها عنهم من قبل. بحثت في هاتفي المحمول على أرقامهم فلم أجدهم، بحثت عن جوان أيضا فلم أجدها، بعد فترة عميقة في التفكير والكلام علمت أن كل ما كان يحدث في (واقعي) ما كان إلا أحداثا قد اختلقها عقلي، وأن لا وجود لأي شخصية من تلك الشخصيات، ولم يحدث أي حدث من تلك الأحداث، حتى أن لا أحد من عائلتي يعلم سبب تلك الغيبوبة كل ما يعلمه أبي أن المدرسة أخبرته بأنني ساقط على الأرض فذهب بي إلى المستشفى. هل هذا يعني أنني لن أرى جوان مرة أخرى؟ هل هذا يعني أنني لن أتكلم مع أي من تلك الشخصيات التي تعودت عليهم. لقد كان واقعي أشبه بالحقيقة، من الجميل حقا أن تتمنى العودة للطفولة وأن تعيد تلك اللحظات، وأحيانا تتمنى الرجوع لتصحح خطأ ما قد فعلته، لكن أن تعود في الزمن وبشكل حقيقي وأن تعيش اللحظات الماضية التي لم تعشها فهذا أمر صعب، صعب جدا. نعم سأشتاق لتلك الأيام، سأشتاق لأشخاص تعلمت منهم معنى الوفاء، وأشخاص تعلمت منهم معنى أن آخذ بحذري من البشر. لقد بدأت حياتي وحيدا حتى اجتمعت بتلك الشخصيات التي أضافت لحياتي نكهتها، وتعرفت على مواقف الحياة التي من الممكن أن أصادفها في حياتي وبشكل طبيعي، عدت وحيدا بدون أصدقاء، لكنني أعدكم بأنني سأرسم مسار حياتي مع أصدقاء جدد. إن واقعي لم يكن بالفعل واقعا خياليا، ولم أعش تفاصيل حياتي خارج نطاق الواقع، فكل حدث كان سيحدث من نقطة الانطلاق، الدليل... اقرأ الرواية من جديد!